تطويب شهيدَي القربان الاقدس

اليسوعيين جاك سالس وغليوم سوتمرش

لاحد الآباء اليسوعيين

في اواخر شباط الماضي احتفلت كنيستنا البيروتية باوّل عيد للشهيدين اليسوعيين الاب جاك سالس (J. Salès) والاخ المساعد غليوم سوتمرش (G. Sautemouche) اللذين اعلن الحبر الاعظم بيوس الحادي عشر تطويبهما في ٦ حزيران ١٩٢٦ فأقيمت في رومية مواسم جليلة تقاطر الوف من الكاثوليك الفرنسويين وغيرهم لحضورها. وقد تخصّصت السنة الحالية لاقامة حفلات خاصّة في العالم الكاثوليكي لذكرهما. وقد طلب منّا بعض حضور العيد ان نروي لهم خلاصة اخبارهما فأفردنا لها الاسطر التالية

***

ليس الشهيدان حديثي العهد فانّ استشهادهما يرقى الى ٧ شباط من السنة ١٥٩٣ وانّما تأخّر تثبيتهما بالطرأ على الرهبانية اليسوعية من طوارئ الدهر ولكثرة ما يُعرض على الكرسيّ الرسولي من فحص دعاوى القديسين. وهذا وحده دليل ناهر على انّ القداسة في الكنيسة الكاثوليكية لا تزال خافقة اللواء عالية المنار

مسقط الطوبويان

هما فرنسويّان من مقاطعة فرنسة المعروفة بأرڤرنية او اوڤرنية (Auvergne) حيث وقعت حروب دامية بين الكاثوليك والبروتستان الفرنسويين في القرن السادس عشر

كان مولد جاك سالس في السنة ١٥٥٩ من أسرة فاضلة عريقة في الدين فنشأ على آداب والديه رسمَ فضائلها. وقد ظهرت عليه لوائح القداسة منذ نعومة اظفاره. فانهُ قبل السادسة من عمره كان يفقه امور الدين ويبجّل تعاليمهُ في صميم قلبه. بل

كان يجمع حولهُ الاولاد اترابهُ فيحضّهم على خدمة الله وممارسة الفضيلة والابتعاد عن المراطقة فيُعجب الناس من فعله

وعُرف في اوائل عمرهِ ايضاً بعبادة خاصّة القربان الاقدس فكان لا يدع يوماً إلّا يحضر القدّاس ويخدم الكاهن على المذبح . فيُسرّ الحضور من مشاهدتهِ فيعدُّونهُ كملاك صغير ويهنئون والديهِ على حصول مثلهِ ولداً

ولمّا بلغ العاشرة من عمرهِ دخل مدرسة الآباء اليسوعيين التي انشأها المحسن الكبير الاسقف غليوم دوپرا(G. du Prat) في مدينة بيليوم(Billiom) فتأصّلت هناك في قلبهِ محبّة الفضيلة حتى انهُ كان يقوم ليلًا ليستحرّ بالصلاة ويتلو فرض العذراء مريم . واتقن دروسهُ فأحكم معرفة اللغات اللاتينيّة واليونانيّة وبعض العبرانية

وفي السابعة عشرة من عمرهِ شعر في قلبهِ بالدعوة الى الرهبانية اليسوعيّة فلم يتردّد في التلبية الى صوت الله فكانت تربة قلبهِ الصالحة معدّة اتمّ إعداد لاستقبال الزرع الالهي المثمر ستين ضعفاً بل مئة ضعف . وقد تمرّس خصوصاً في فضيلتي قلب يسوع الاقدس القائل : « تعلّموا مني انّي وديع ومتواضع القلب » . وكان الذين يراقبونهُ يؤكدون انهُ بلغ في تينك الفضيلتين مبلغاً لا يبلغهُ الّا كبار القديسين

واعتاد ايضاً ان يتنقّل من رؤية المخلوقات الى الخالق . فكان يكفيهِ ان ينظر الى زهرة ليرفع نظرهُ الى الله مبدعها فيتّقد قلبهُ حبّاً بهِ تعالى . وكان حبُّهُ هذا لبارئهِ يزيد اضطراماً بازاء سرّ القربان الاقدس والاله المحجوب تحت الاعراض السرّيّة كانهُ شعر منذ ذاك الحين انهُ سيموت للدفاع عن حقيقتهِ

وكان جاك سالس ذا عقل ثاقب وفهم واسع احرز في زمن دروسهِ كلّ علوم زمانهِ الدينيّة والادبية فانتدبهُ الرؤساء الى تدريسها لاخوته الرهبان قبل الثلثين من عمرهِ . فكان الدارسون يعجبون من سموّ ادراكهِ وايضاحهِ لاصعب المسائل وحلّهِ لأعقد الشاكل اللاهوتيّة والفلسفيّة بحيث لم يدع ريباً لمرتاب

وكان الرؤساء اذ رأوا ما خوّل الله الاب سالس من سعة المعارف وطول الباع في التعليم احبّوا ان يفردوهُ لتلك الغاية ويخصّوهُ بذلك التعليم لولا انّ صحّتهُ المنهوكة وضعف جسمهِ اضطرّ الحكماء الى ان يطلبوا لهُ شغلًا آخر فأُرسل الى مدرسة تورنون ليباشر فيها اعمال الكهنوت بين اخوتهِ واعمال الرسالة في الانحاء المجاورة . فعُرف

السيدة العذراء مريم

سلطانة الاخويّات المريميّة

منذ وصوله الى هذا المركز الجديد كواحدٍ من رجال الله تلوح عليه كل لوائح القداسة لاسيما في مزاولة اسرار الكهنوت وكان اخوته يطرئون خاصّة عبادته لسرّ محبّة ابن الله في قربانه الاقدس حتى وجدوهُ لا يدع ساعةً في نهاره دون ان يزورهُ . وكثيرًا ما كان يقوم ليلًا ليسجد للاله المحجوب تحت اعراض حقيرة

فلما كانت اواخر سنة ١٥٩٢ في الشهر السابق لعيد الميلاد أرسل الاب سالس الى مدينة اوبناس (Aubenas) اجابةً لطلب حاكمها بلازوك دي (Balazuc) الذي التمس من رئيس دير تورنون ان يرسل لهُ رجلًا قديرًا على التبشير وضليعاً باللاهوت لتنفيذ اضاليل البروتستانت . فسار الاب سالس وصحبهُ كرفيقٍ الاخ المساعد غليوم فقضى شهرًا في المدينة اعدَّ المؤمنين بعظاته لعيد ميلاد الربّ وعُرف عند جميع اهل المدينة كقديس وعالم معاً . ثمّ تجوَّل بعد العيد في القرى المجاورة لأوبناس . فكان حيثما يحلّ يُستقبَل كرسول ويتقاطر الى استماعه سكّان تلك الجبال من كاثوليك وبروتستانت وكلُّهم على اختلاف نزعاتهم يقرُّون لهُ بكامل الفضائل الرسوليّة من غيرة وإخلاص وتفانٍ في خدمة النفوس وأخلاق راضية تسبي اليهِ القلوب

ولمَّا قرب صوم السنة ١٥٩٣ استدعاهُ ثانية حاكم مدينة اوبناس للوعظ والارشاد والدفاع عن الايمان بازاء زعماء البروتستانت فعاد اليها في اواسط كانون الثاني في السنة ١٥٩٣ وبمعيَّتهِ الاخ المساعد

امَّا هذا الاخ فكان يُدعى غليوم سوتمرش كان ولد سنة ١٥٥٥ وتربّى بموجب كلّ تعاليم الكنيسة وعُرف منذ صغرهِ ببذاجة طباعهِ وبساطة قلبهِ . واذ خاف أنَّ وباء العالم يفسد طهارة قلبهِ طلب من رؤساء الرهبانيَّة اليسوعية ان يقبلوهُ في جملة رهبانهم المساعدين . فاجابوا الى ملتمسهِ وعرفوا بالاختبار انَّ الله أهداهم رجلًا بارًّا ذا فضيلة سامية وانتدبوهُ الى اشغال جامعة بونتاموسون ثم دير تورنون بصفة بوَّاب وخيَّاط فقام بهمّتهِ بكل حرص حتى انَّ الوافدين على الدير كانوا يجأرونهُ كقديس

ومما يخبرعنهُ انَّ اميرًا المانيًّا اتى لزيارة جامعة بونتاموسون وكان في خدمتهِ شابّ قليل الحياء لم يرعَ كرامة المدرسة واراد ان يغتصب احد تلامذتها فتصدَّى لهُ الاخ ليمنعهُ فكان من هذا الشابّ التزق إلَّا ان وثب عليهِ واوسعهُ لطماً حتى ادماهُ فاحتمل الاخ هذه الاهانة بكل صبر دون ان ينبس ببنت شفة ليشارك ابن الله في آلامهِ

فهذا كان الرفيق الذي اختاره الرؤساء ليسير في صحبة الاب جاك سالس ويشاركه في اتعاب الرسالة في اماكن مستوحشة وفي شدّة الزمهرير. فسُرّ الاخ لانتخابه هذه الخدمة وكان يُرى مطلقاً باش الوجه يهنئ نفسهُ بما يصيبهُ من الألم وغاية ما كان يردّدهُ وقتئذٍ مخاطباً جسدهُ : « تألم يا جسدي تألم فهذا نصيبك »

الاستشهاد

عرفتَ الرجلين فهيّا الآن وعاين الشهيدَين

وقبل كلّ يجب ذكر حالة فرنسة في القرن السادس عشر. منذ رفع لوتاروس راية العصيان على الكنيسة وجاهر بمعاداة الكاثوليك حتى بعث انصارهُ على محاربتهم كاعداء الله فهاجت اوربّة بالحروب الدينيّة ومع تعدُّد الشيع البروتستانتيّة واختلافها في معتقداتها كانت كلُّها تتّفق على مناجزة القتال لكنيسة المسيح. وبعد أن بثّت روح الفوضى في اوربة المركزيّة حاولت أن تغلب فرنسة على ايمانها فاندفع البروتستانت الكلوينيُّون على انحاء البلاد اندفاع السيل الجارف فكانت عُصاياتهم تطوي اقاليم فرنسة وتبيح سكّانها الذين لا يذعون مذعنها فتنهب وتسلب وتحرق وتخرب كما فعلت عصابات الدروز في هذه الايام. وكان اشياع لوتاروس وكلوينوس ينقمون خصوصاً على الكنائس فيسعون بتدميرها وإلغاء رتبها الدينية وقتل كهنتها فتفاقت شرورهم في اواسط القرن السادس عشر

فلم يرَ الكاثوليك بُدًّا من الدفاع عن وطنهم فتعاهدوا على محاربة الكلوينيين فجيّشوا الجيوش وقاتلوا اصحاب الاصلاح البروتستاني الموهوم فدامت هذه الحروب الاهليّة نحو ٣٠ سنة لم تهدأ إلّا بارتداد الملك هنريكس الرابع الى الكثلكة وجلوسه على عرش الدولة

ومن الاقاليم التي أُصيبت بضربات الكلوينيين اقليم دوفيناي ومعاملتي ڤيفاراي (le Vivarais) وڤيلاي (le Velay) حيث كانت مدينة اوبناس. وكان البروتستانت يغيرون عليها ليسيطروا عليها حكمهم وتوصّلوا الى ان يتسيطروا على قسم كبير منها وكانت مدينة اوبناس من جملتها دخلوها عنوة وتملّكوا عليها ٢٧ سنة الى ان تمكن

جيش الكاثوليك من فتحها سنة ١٥٨٧ . ثمّ وقعت معاهدة في السنة ١٥٩٢ بين الكاثوليك والبروتستانت على مهادنةٍ فكفّ كلا الجيشين عن القتال

ففي اثناء تلك المهادنة عاد الاب سالس في ١٠ كانون الثاني سنة ١٥٩٣ الى اوبناس ليتفرّغ لاعمال الرسالة والتبشير لإعداد المؤمنين لعيد الفصح

واخذ يلقي كلام الله في الكنائس فيتقاطر الشعب الى استماعه . وكان كثيرون من الكلوينيين المقيمين في البلد يأتون ايضاً لحضور مواعظه وكان الاب يؤيد معتقدات الكاثوليك بأقوى البراهين العقليّة والنقليّة فيذعن لحججه كل من لا يكابر الحقّ

فامتعض زعماء البروتستانت من ذلك واعلنوا بانهم يفحمونهُ بالمجادلة فعرضوا عليه ان تُعقد في بعض النوادي جماعة عموميّة يتباحثون فيها عن سرّ القربان الاقدس . فسُرّ الاب سالس من دعوتهم واجاب انهُ يلبّي طلبتهم بكل ارتياح . لكنّ الزعماء المذكورين واكبرهم لابات (Labat) لم يأتوا في الوقت الموعود وارفضّ الجمع بخيبة الامل وتحقّق الجمهور انّهم يخافون من الفشل بازاء الاب سالس لئلّا يعودوا بالخزي والعار اذا زُيّف مزاعمهم الباطلة

فلجأوا الامر الى فرقة من جنودهم كانت تحلّ بالقرب من اوبناس كان قائدهم المسمّى فرنسوا دي شَمبو (Fr. de Chambaud) . وكان هذا من ألدّ اعداء الكاثوليك وعلى الرغم من الاعلان بالمهادنة إئتمر مع بعض ضبّاطه على فتح المدينة غيلةً . فاختاروا لذلك ليلةً حالكة الظلام تهبّ فيها ريحٌ صرصر وتهطل الامطار سيولًا فتحاملوا على المدينة ورقوا اسوارها بالسلالم فدخلوها دون مقاومة وفتحوا ابوابها لجنودهم واجتمعوا بين وجنودهُ فيها من اصحابهم

وكان في المدينة قلعة حريزة فأسرع الكاثوليك واعتصموا بها تحت حماية الحاكم غليوم دي بَلازوك سيّد منتريال وكان الاب سالس ورفيقهُ من جملتهم . وكان الاب المذكور قد سبق ونبّه الحاكم على مكر الكلوينيين وانّهم يتوون لمدينته الشرّ . فظنّ انّ الاب المذكور يغلب عليه الوهم والخوف فأخذ يطمئنهُ . فسكت الاب واخذ يستعدّ للموت في سبيل الايمان

والحقّ يقال انّ الاب سالس كان منذ سنين طويلة قد اوحى اليه الله بانهُ سيُقتل شهيدًا . وكان قبل خروجه من دير تورنون أعلم بعض الرهبان انهم ما عادوا يرَونهُ .

وكان في كل زمن رسالته يفرغ جهدهُ في نشر حقيقة سرّ القربان وتفنيد اضاليل الكلڤينيين في ذلك. وكان ألّف كتاباً كبيراً في ايضاح تلك العقيدة يميزهُ كلّ من يحبّ الاطلاع على صحّتها

فلما استولى الكلڤينيُّون مكرًا على مدينة اوبناس رأوا انَّ القلعة لا تزال قويَّة لا يستطيعون فتحها قبل ان يأتي جنودٌ من الكاثوليك لنصرة اخوتهم. ومن ثمَّ رأوا انهُ لا بُدَّ من السرعة فحفروا تحت القلعة ليدكُّوها بالألغوم. فقضي على الحاكم ان يطلب الامان

فكان اوَّل من احتفظوا عليهم اليسوعيَّين فحبسوهما في بعض البيوت. فظنّ زعماء مبشّريهم انَّهم يغلبون الاب سالس بالجدال وهو في قبضتهم فيسكت عنهم ليطلقوا سراحهُ فيشيعوا انهم اقنعوهُ بضلالهم

لكنَّ الاب على الرغم من ضعفهِ وانتهاك قواهُ اذ حرموهُ الاكل والشرب كان يجد أيدًا سماويًا في تزييف سفسطتهم فلا يسعهم الردّ على ادلَّتهِ اللامعة وبيّناتهِ الساطعة فيرتدُّون عنهُ بالصَّخب والتهديد والشتائم والاب كصخرة لا تعمل فيها تلك الانواء. فرأى اخيرًا احد قوَّادهم جان بوس (Jean Bosse) المعروف بسيِّد سرجاس (Sarjas) انهم لا يقوون على ذلك البطل إلَّا باغتيالهِ فقاده الى ساحة المدينة. فعرف الراهب القديس نيَّتهم فسار معهم بكل رباطة جأش ثم جثا راكعاً مقدّماً لله حياتهُ لربّهِ فاطلقوا عليهِ رصاصةً ثمّ طعنوهُ بالخناجر حتى مات

وكان القتلة ارادوا اوَّلا ان يطلقوا سبيل الاخ غيليوم لكنهُ عارضهم قائلًا: اني لن افترق عن الاب المرسل لاني رفيقهُ في الحياة والموت. فلما رأى كيف قُتل الاب سالس جثا هو ايضاً على الحضيض وبينما كان يصلّي باسطاً ذراعيهِ على شكل الصليب وثبوا عليهِ كالسذاب فانخوهُ جراحاً حتى سقط قريباً من الاب سالس، وكان آخر كلمة فاه بها ما اعتادهُ لمخاطبة جسدهِ: «احتمل ايها الجسد احتمل فالألم نصيبك لاجل الله»

هكذا تمَّت هذه المأساة التي زادت صحيفة دمويَّة على مآثر البروتستانية وزيَّنت تاريخ الرهبانية اليسوعية بذكرى شهيدَين باسلَين استحقَّا ان يُدعيا بشهيدي القربان الاقدس اذ قُتلا في الدفاع عن حقيقتهِ في وجه المبتدعين

وما عتّم ان شاع ذكرهما بين ابناء الكنيسة فكتب ثلثة من المؤرخين المعاصرين تاريخهم معتمدين اصدق الروايات عن شهود عيان استدعتهم السلطة الكنسيّة لتقدمة شهادتهم . فأخذ الناس يلتمسون شفاعتهم فنالوا بها عدّة كرامات في انحاء البلاد لاسيما في فرنسة حتى اخذ اساقفتها يحثّون بالناس تثبيت الشهيدين كطوبويّين . وبعد أن أُجري الفحص المدقّق بمقتضى القوانين المرعيّة عن حياتهما وموتهما أُرسلت تقارير اللجنة الفاحصة الى رومية وطلب الاساقفة رسميًّا نَصْبهما على المذابح باسم الحبر الروماني . ولم يكتفِ الاساقفة وحدهم بالتماس هذه النعمة بل طلبها غيرهم من الذوات من جملتهم الملك لويس الرابع عشر . فوعدهُ الحبر الاعظم خيرًا

وكان من ثمار استشهادهما — وفقًا للمبدأ القائل بان دماء الشهداء زريعة للمؤمنين — ان مدينة اوبناس عادت بعد قليل لحكم الكاثوليك وان معظم اهلها الكلوينيين ارتدّوا الى الكثلكة وأُقيم في المدينة دير للآباء اليسوعيين ومدرسة عامرة

لكنّ العاصفة الكبرى التي ثارت ضدّ الرهبانية اليسوعية في القرن الثامن عشر منعت مواصلة العمل . ثمّ ذاعت اوراق الدعوى بعد الغاء الرهبانية اليسوعية الى ان وقف عليها اخيرًا الاب اليسوعي فرديناند تورنيه (F. Tournier) سنة ١٩٠٠ بين سجلّات الدولة الايطالية . فعاد المجمع المقدّس الى فحصها بكل تدقيق الى ان برز الحكم مؤخرًا في قداسة واستشهاد هذين اليسوعيين في العام الماضي . فوافق ذلك في الجمعة المخصّصة لاكرام القربان الاقدس الذي مات الشهيدان بالمدافعة عن سرّه العظيم نفعنا الله بشفاعة اوليائه المكرّمين

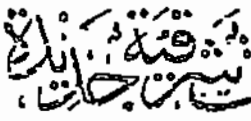

Charles Boreux : L'ART ÉGYPTIEN (Bibl. d'Histoire de l'art.) 4°, 62 *pp. et* 64 *pl.*, *Paris-Bruxelles*, *Van Oest*, 1926

الصناعة المصريّة

قد قدّمنا سابقًا لقرّاء المشرق (٢٤ [١٩٢٦] : ٨٧٠) تأليفًا اصدرتهُ المكتبة المعروفة بتاريخ الصناعة للسير ميجون في الصنائع الاسلاميّة . فيسرّنا اليوم ان نتقدّم